مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

هـذا بحث قد حبَسْتُه عن الناس — تسعَ سنوات — مؤامرةً قبيحة ؛ وأنا غير آسف لهذا التأخير ، وإن لم يأت عني آختيارا . فلو قد قُدِّر له أن يظهر يومئذ لكان ذلك مصانعة من الزمان لصاحبه ، أن يأذن لكتاب له بالظهور فى وقت لم يكن يظهر فيه كتاب لشاب ، إلا أن يدين بالتبعية المطلقة لصاحب حول أو طول . وهذا الكتاب غريب عن ذلك المعدن ، برىء من ذلك المركَّب ، لأنه ينفخ فى غير هذا البوق ، ولا يتصم بالتبعية ، ولا يحترم إلا العقل ، ولا يلين فى الحق .

وأنا سعيد أن يظهر هذا الكتاب فى زمن هو أشبه بالحد الفاصل بين عهدين من عهود البحث العلمى ، ولونين من ألوان الآستقراء والنظر ؛ وفى هـذه الأيام التى تعتبر ، دون ريب ، استهلال عهد من عهود الثورات فى حياة الأمم ؛ ولست أقصد إلى الثورات الهدامة الدامية ، ولكنما أقصد إلى هذه الانقلابات التى تصيب حياة الناس بعد الحروب الرهيبة ، التى تدفع فيها الانسانية بجماع من دمها ومن نفسها ، وتحمل فيها من جسام الآلام ما يبعث بنفوس أبنائها إلى أمل خلاب فى تحقيق مُثُل توفر لها من السعادة ما يعوض عليها بعض ما حملت من شر فى الحروب ، وما لقيت من بلاء بها .

فى مثل هذه الثورات المجتاحة ، التى تهز النفس إلى أعمق قرارتها ، وتمتد إلى أبعد أصولها ، لا تجد النفوس صورتها فى أقلام أصحاب المدرسة القديمة ، ولا فى تفكيرهم ، ولا فى نظرتهم إلى الأشياء ؛ ولكنها فى حاجة إلى نفوس تتدفق شبابا وعزما ، وعقول تفيض قوة ؛ وهى يومئذ أكثر طموحا إلى غير ذلك اللون العاجز من الثرثرة الواهنة القبيحة التى لا تملأ فيها فراغا ، ولا ترضى لها حسا . وهذا الكتاب ، وإن يكن قديم الموضوع ، إلا أنه أشبه بهذه الأيام الجبارة الثائرة ، فى طريقته ومنهجه ، وفى وسيلته العلمية وأداته ، وفى ترتيبه وتبويبه .

فلم أتبع فيه نهجا ولا طريقة اتبعها غيرى فى دراسة شاعر . وإنما أملى الطريقة فيه نوع الموضوع ، وانشعابات البحث ، وما كان يجد بين لحظة وأخرى تبعا لنمو الدراسة وموجباتها . ولقد خرج ، لهذا الأمر ، بعيدا عن أن يكون محاكاة لعمل آخر من نوعه ، أو نقلا لمنهاج شرقى أو غربى .

وقد كنت دائما صادق الاقتناع بأن تناول المسائل ، ودراستها على أساس طرائق متحجرة ، تطبق الطريقة منها على النوع الأدبى بأكمله ، خطأ وإسفاف معا . خطأ لأن أفراد النوع الواحد تتفارق فيما بينها تفارقا يقتضيه مجرد وجود هذه الأفراد ؛ فإن الفرد لا يتكرر وجوده بذاته وصفاته فى الطبيعة . وعلى ذلك فإن مجرد تعدد أفراد النوع الواحد داعية إلى اختلاف الطرائق والمناهج فى دراساتها . وإسفاف ، لأن فيه ما فيه من وقوف بدراسة النوع الواحد عند ظاهرة عقلية واحدة ، يأخذها اللاحق عن السابق ، كما يأخذ المثَل الكامل . وهذا ما لم يقل به أحد ؛ فإنه إذا لم يكمل المتأخر المتقدم ، ويضيف إلى ما ترك جديدا ، ضاعت ثمرة وجود الأجيال وتعاقبها . وفى هذا امتهان للعقل البشرى ، ووقوف به عند منزلة بعينها لا يعدوها .

والكتاب أيضا ثورة فى الوسيلة العلمية إلى تحقيق ما جريت وراء تحقيقه . فلم آخذ بما قيل من قبل ، على أنه مسلّمات عقلية ، أو حقائق علمية مؤكدة ؛ وإنما عرضت كل شىء على مقاييس البحث ، وأجريت عليه معايير التحقيق ، فقبلت منه ما صححه المنطق ، ونفيت منه ما لم يصححه ، وأضفت إلى ذلك كله ما أوقفنى عليه عمل ناصب ، وجهد أفرغته لكشف غوامض موضوعى ، وأسأل الله أن أكون وفقت .

وثورة فى الترتيب ، كما سيلاحظ القارىء فى تبويب الكتاب ، وترتيب موضوعاته وأبوابه .

وكان من جرّاء هذه الثورات غضبة حاقدة مكبوتة من أحد أقطاب المدرسة القديمة ، فأخذ يحتال ما استطاع ليحول بين هذا الكتاب وبين الوصول إلى أيدى الناس . فطلب منى أصوله بحجة طبعها ، فسلمتها له ، فظل يحبسها عنده ثمانى سنوات .

ويحزنّى أن أقول إن أبحاثى كانت فى هذه الفترة الطويلة ، نهبا مقسوما فنشر بعضها ممسوخا مشوّها دون إشارة إلى مصدره .

obeikandl.com

ويقع ما كتب عن أبي تمـام، قبل بحثى هذا وبعده، فى قسمين : قسم كتبه القدماء، وقسم كتبه المحدثون .

فأما ما كتبه القــدماء : فأحكام مركزة صادقة، تقوم على علم صحيح، وإلمـام سليم بدقائق فن أبي تمـام ومذهبه . وهم فى ذلك لا يغلون، ولا يفرطون . وليس فيما كتبوه شيء من التخليط الذى هو الطابع البيّن لبعض الكتابات الحديثة، ولا ادعاء المعرفة فى غير معرفة . وهم حذرون فطنون يهابون الأحكام القاطعة، ويتوجسون الزلل . وهم مع ما اجتمع لهم من أطراف الموضوع، لتقدمهم فى الزمان، وقربهم من عصر أبي تمام، يعرفون للتـاريخ حرمته، وللحق رهبته، فلا يرمون بالظِّنة، ولا يقولون إلا ما هم به يؤمنون . وهم ذوو نظر نفاذ، وحكم مصيب، وجمع لمـا نتحدث نحن به اليوم مفصلين، فى موجز العبارات، واستقصاءٍ لنواحى البحث، وعلم ثابت شامل وثيق .

غير أنهم كانوا يخالفوننا فى الطريقة، والسنّة، فما تركوه لا ينطبع بطابع الوحدة، ولا يكاد يأخذ فى رأينـا الحديث مظهر الموضـوع الواحد، إذ أنهم لم يكونوا يرضون عمـا نرضاه اليوم من إذابة التفاصيل، وصقلها، وسبكها، ثم تكلف صبها فى قالب واحد . وإنما هى أحكام متفرقة لا يكاد يفلت من حبائلها باحث .

وأما ما كتبه المحدثون فطائفتان : طائفة كتبها المستشرقون، وهم قــوم علماء باحثون، ولكن بعضهم لم يسلم من عصبية على الإســلام والشرق، فهو محاول أبدا تجريدهما من مفاخرهما . ولمـا كان أبو تمام إحدى هذه المفاخر، فقد تلمس بعضهم الأعذار لإخراجه عن هذه الدائرة، وجعله من أصل نصرانى، بل والذهاب إلى أبعد من ذلك بتحديد جنسه وعنصره . فقام كاتب مادة أبي تمام فى دائرة المعارف الاسلامية يذكر ما قيل: من أن أباه كان نصرانيا يدعى «تدوس» ثم عقب عليـه بهـذه الكلمة الإفرنجية على هــذه الصورة : "Theodose?" . وهــذا الاسم يونانى، فكأنه رمى إلى القول بأن أبا تمام من أب يونانى . وكان هذا هو الجديد الغريب فى كل ما كتبه . أما ما جاء غير ذلك فى حديثه عن حياة أبي تمـام وفنه فليس يساوى شيئا كثيرا، فإن تذوق اللغة، والوقوف على أسرار نصوصها، وروحها ليس بالأمر اليسير على غير أهلها .

وطائفة كتبتها جماعة من باحثينا، الآخذين عن المستشرقين، وأولى بنا أن نسميهم المتعاجمين، لا المستعجمين، فإن للاستعجام شروطا، أولها تمـام الأداة، واستيفاء شرائط البحث والتحقيق،

*

على قياس ما عند الأعاجم من العلماء ، وقد حرم هـذا الفريق الذى أشرت إليـه من هذه جميعا ، و إنما تقوم ثروته على آنتحال ما عند المستشرقين عن الأدب العربى آنتحالا . وعملهم الشخصى فيه إنمـا هو بسط النظر ومطـه ، وتطويل موجزه ، وتشـويه تناسبه، والإفراط فى تصويره . وهم أقرب إلى أن نصفهم بفئة النَقَلة بالفحوى. وقد نقل هؤلاء ما قيل عن يونانية أبى تمام، وتبجحوا فى الصراخ بها . وكانت نعرة إنمـا قصد بها إلى الدعاوة للذات ، ولفت الأنظار ، ومفاجأة من هم فى كل شعب من الشعوب على آستعداد للفاجأة بالجديد ، حتى يدّعى لهم العلم بما لم يعلمه غيرهم .

وكان هذا النقل عن المستشرقين فى ترجمة أبى تمـام ممكنا ؛ أما ما لم يكن نقله عن المستشرقين فهو الدراسـة الفنية لآثار أبى تمـام وشعره . فقاموا هم بأنفسهم عليها ، على قصور فى الوسائل ، معتمدين فى ذلك على النقل المباشر عن القدماء أو على الحدس والتخمين . فكانت عند بعضهم نقلا لأقرب ما قاله القدماء، ولأكثره شيوعا وجريانا بين الناس، وهو أتفه ما تركوا وأرخصه ، وكانت عن البعض الآخر تخليطا فى إطـلاق بعض مصطلحات الفنون البلاغية على غير مدلولاتها ، ومحاولة لتوليد مصطلحات جديدة لفنون وجد لها مصطلحها القديم .

واقد جعلت كتابى هذا فى ستة أبواب :

الباب الأول : دراسـة مطوّلة لتاريخ طيئ فى الجاهلية والإسلام ، قصـدت بها إلى أمور : أولها عقد الصلة بين ما آشتبه فى نسب أبى تمـام على بعض المستشرقين ونقله عنهم بعض من يدعو بدعوتهم، و بين تاريخ طيئ فى الجاهلية والإسلام عقدا يمكن به إلقاء النور على كثير مما عُمّى عليهم، وأرتج فى وجوههم بابه. ولم تكن السبيل إلى ذلك معبّدة، مفتوحة، فليس أنقص من تاريخ العرب فى الجاهلية شىء ، ولا يكاد يقع فى تاريخ أمة من الأمم أن ترتدّ فيـه علل عظائم الأمور إلى أتفـه الأحداث ، بقـدر ما يقع ذلك فى تاريخ العرب فى جاهليتهم . فكان تخليص الأسباب الأصيلة الحقيقية من بين آشتجارات الحوادث المبعثرة هنا وهناك عملا شاقا مضنيا، حاولته أملا فى الاهتداء إلى بصيص يلقى بعض الضـوء على تلك الظلمات الرهيبة المتكاثفة ، حتى أكشف بذلك الطريق إلى ذلك المـاضى البديع ؛ وقـد وجدت ما يساعدنى على تشخيص سياسة الفرس والروم فى شبه جزيرة العرب، وموقف طيئ من الصراع الذى كان يقوم بينهما ، وتأثرها به تأثرا كان يقسمها على نفسها حتى لتحترب الحرب بين الإخوة من بطونها : الغوث وجديلة ؛ وساعدنى ذلك على إدراك الصلة الوثيقة التى كانت توجد بين طيئ فى الجاهليـة و بين الروم، وما كان من آنبثاث النصرانيـة

بين أبنائها، فتبين لى بذلك شيئان الأول : أن النصرانية لا تتنافى مع الطائية، والثانى : أن استعارة الطائيين من أسماء الروم النصارى بعضها وآستعمالها، أمور لا تتنافى أيضا مع طائيتهم، فذلك مايفعله حتى اليوم بعض أقباط الصعيد المصرى من آستعارة الأسامى الأمريكية لأبنائهم فلا يخرجون بهـا عن مصريتهـم . ذلك إن صحت الرواية القـائلة : إن أبا أبى تمـام كان نصرانيا يدعى تدوس ، وصح أن أصل الكلمة هو : Theodose

وثانيهـا : أنى حاولت تحليـل العناصر التى يتكوّن منهـا تاريخ طيئ وأدب طيئ وآستخلاص هـذه كلها حتى تكون معايير أعرض عليها شعر أبى تمـام ، فإن تجاوبا وتجاذبا وتشابها ثبتت بهـا عندى طائيته .

وثالثهـا : إنى جعلت هذا النحو من التحقيق لآستخلاص التـاريخ من الأخبار المتناقلة عن الجاهلية تجربة كنت أرجو أن أنجح فيها، فأتابعها بعد ذلك فى تحقيق وجوه أخرى من وجوه هذا التـاريخ نفسه .

وختمت هذا الباب بآستقراء ما جاء فى نسب أبى تمام، فعرضته على مقاييس التحقيق عرضا مستفيضا وخلصت منه إلى اعتقاد جازم بطائيّة أبى تمـام .

والباب الثانى : جعلته تصويرا لخلقة أبى تمـام وصفاته، وللحديث على أسرته .

والباب الثالث : وهو نُقْلة إلى الدراسة الفنية لشعر أبى تمـام. وفيه زاوجت بين حياة أبى تمام وحياة شعره، وقد لاقيت فى ذلك عنتا ما بعده عنت. ذلك أن شعر أبى تمـام لم يُرْوَ لنا مرتبا على حسب التاريخ، و إنمـا روى لنا مرتبا فى كل رواياته على حسب الحروف الهجائيـة ، فآضطرب لذلك من الناحيـة التاريخية آضطرابا رهيبا ، وآشتجر آشتجارا ملغزا . وكان عمادى فى ذلك كتب التاريخ والديوان : أخلص إلى الأحداث أقرأها ، وأجمع أطرافها ، وأتمثلها جميعا ، و إلى شعـر أبى تمام تجمع ما تفرق من فنونه ، وما آنشعب من وجوهه، وما آشتبه من أحداثه، وأميز بينها جميعا، إنْ يشبه هذا ذاك ، فأين الدليل؟ ولا أزال أتحرى البرهان، وأتلمس الوقائع، وأسائل الشعر حتى تستجيب الصخرة . و إنى لأحمـد الله أعمق الحمد على أن قد وفقت فى أن أستخلص من بين براثن الغموض التاريخى ما آستخلصت عن حياة أبى تمام وعن حياة شعره ، و بذلك آستحال شعره عن مسمياته التقليدية من المدح ، والهجاء ، والرثاء ، إلى صور من التعبير النفسي الغنائى .

ففى هذا الباب قصة نفس أبى تمام وحياة قلبه، وما كان يتداول عليها من مشاعر وآنفعالات. ولقد كان هـذا الباب خير مناسبة لتصوير ما كان يطرأ من تغيرات على شعر أبى تمـام ، فأرخت فيه تطورات شعره، ونبهت على كل طور من هذه الأطوار، ما كان يميزه فيه عما قبله ، وما أصاب قالب شعره بزيادة أو بنقص .

والباب الرابع : وفيه عالجت المذاهب التى تداولت على الشعر العربى قديمه وحديثه ، وانقسام شعرائه إلى قدماء ومحدثين، وفرق ما بين أولئك وهؤلاء، وآستقرار التسمية حتى أصبحت آصطلاحا، وشرحت "عمود الشعر" عند العرب ، وكان حتى تصنيف كتابى هذا سنة ١٩٣٦ ، عبارة غامضة شيئا، فوقفت عليها وقد جلاها المرزوقى فى مقدمة شرحه للحماسة ، فنقلت تفسيره لعمود الشـعر ، وما نشر قبل ذلك ولا عرفه أحد ، وقارنت بينـه و بين ما قاله الآمدى فى ذلك ، وظهر لى شىء من التشابه بين ما قالاه و بين ما قاله أرسطو فى كتاب "الخطابة" ، فنبهت على ذلك، وكانت هناك طائفة أبى تمام فتحدثت عنهم كذلك وعن أبى تمـام فى هذا الباب ، وتأثر هؤلاء بأرسطو فى كتاب آخر هو "الشعر" .

والباب الخامس : وفيه وصلت بين فنّ أبى تمـام الشعرى من حيث إنسانيته ، وما يشيع فيه من آندفاع إلى الحب، أو آندفاع إلى الحقد، أو بعبارة أخرى من بلوغ فى تذوق الحياة إلى الأطراف وبينت ما كان لعصره ، عصر العصبيات العنصرية، من أثر فى سهولة ذلك على النفس . وما أشبه ذلك العصر الدامى بمـا رأيناه فى عصر هـذه الحرب الأخيرة . فالإنسان هو الإنسان فى كل زمان وفى كل مكان .

والباب السادس : وهو تكملة للدراسـة الفنية لشعر أبى تمـام، بعد ما مر فى الأبواب الثلاثة السابقة من دراسة لفنه، ففيما مضى تحدّثت عن التطورات التى أصابت فنه جملة، وعن الخصائص العامة التى تميزه كُلًّا، وعن طريقته فى قصيدته، وموجهات فنه . وفى هذا الباب أتحدث عن جزئيات منه ، من الصورة ، واللفظ ، والجملة ، والحكمة ، وتعلق فن أبى تمام بالحقيقة وما شابه ذلك .

وسيتبين قارئ هـذا الكتاب أن فنّ أبى تمـام ليس بالفـن الساذج، ولا البسيط الذى يقف عن حد نوع من الطباق بعينه، يخلطه أبو تمام بجناس أو يلفه على آستعارة . فهذه نظرة مضحكة . ولو قد فهم نقاد العرب هذا فى أبى تمام لنبذوه وضحكوا منه، ولمـا قصروا عن أن يقولوا فيه ماقاله

محدث ممن يعيشون فى هذا العصر لمـا قرأ شيئا بهذا المعنى : " كأن فن أبى تمـام لا يزيد على لعبة الشطرنج ، حجارتها معدودة ، ولكنها تنتقل إلى غير نهـاية ؛ ولكن هـذا إن أرضانا فى الشطرنج فهو لا يرضينا فى الشعر" .

هذا وصف مجمل لمـا عملته وعمـله سواى فى دراسة فن أبى تمـام وحياته . وليعذرنى القارئ فى أن سقته اليه فى هـذه الصراحة الجافية . فإن ما لقيته أنا ، و يلقاه كثير أمثالى أدواء طاغية ، تنخر فى كيان اجتماعنا الشرقى اليوم ، يلق منها شبابنا شرا ما بعده شر ، و يقضى فى كفاحها شطرا من العمر كان أولى به أن يفرغه لمـا هو أجدر به ، وأ كرم على الإنسانية والعـلم . وهى بلايا ومحن تحشـد فى وجوه الشباب يوم يفتح عينيه على الحياة العاملة ، فتحول بينه و بين البناء الذى كان يجب أن يتجه إليه ، وتشغله بذاته عن العمل لخدمة وطنه وقومه ، وقد تقتل شخصيته أو خلقه ، وقد تعصف بكيانه جملة .

إن الشباب ليس فى حاجة إلى تعـلم الكرامة ، ولكنه فى حاجة إلى غير ذوى الأهواء لتوجيـه قواه ، فإن الشباب يستمد من طبيعته الكبرياء ، ويجد فى قوامه الحس بالكرامة .

والشباب لا يطلب المعـونة على إيقاظ ضمـيره ، وتطهير نفسه وروحه ، لأنه مزاج خالص من هاتين الخلتين ؛ ولكنه يطلب المعونة على أن يجنب التلويث ، و إن يبرأ من مواطن الزلل ، فى عهد من عهود العمر يكون فيه أقبـل للمؤثرات . إنه ليس شرا على شباب أمة من الأمم من أن يحكم فيه ذوو الهوى ، ومَرْضَى النفوس .

لقد كنا طائفة من الشباب ، متخالفة الحظوظ من الثقافة ، ومن القوى ، ومن صلابة العود ، ولـكنا كانت تجمع بيننا رابطة المَثَل الواحد ، ثم تعرضنا للامتحان فى جبهة موكب الحياة فافترقنا شعبا ، فوجدت فئـة منا طريقها الى السجن والاعتقال ، ووجدت فئـة منا طريقها الى الفقر والفاقة ، ووجدت فئة منا طريقها الى المرونة والكياسة ، وهو طريق أدى بها الى النجح المـادى والرخاء ، ووجدت فئة منا من ظروف الحياة والعمل حماية وقتها بعض شر المحنة ، وشيئا من بلية النضال .

و إنى لتحضرنى الآن صورهم وأشخاصهم ، وتحضرنى تلك الاندفاعات العارمة التى كانت تأخذهم جميعا ، وتمتلك قلوبهم الشابة جميعا . وأرانا كأنما نحيا من جديد ، نضرب على الطريق اللاحب ، ونلق من اليسر ومن العسر ما قسم حظا لكل طالب مَثَل . .

ففريق منا طلب مَثَله فى السياسة ، وفريق منا طلب مَثَله فى الحــق العلمى ، وفريق منا طلب مَثَله فى الخير الاجتماعى . وضربت الأيام ضربتها ، وسار الكفاح سيرته ، وأحطْنا بما يحاط به كل مصرى ناشىء ، فى بيئة نظلمها إن نحن أنحينا باللوم عليها ؛ وقــد انكشفت الغبرة ، وانجلى القتام ، فاذا بنا فريقان : فريق الجرحى ، ولكنهم جرحى يشــدّ أزرهم إيمان بالمثل الذى طلبوه ، لم تعمهم الشدّة عن يقينهم ، ولم يحطم من نفوسهم البلاء ، تلفهم الجراح ، ولكنهم لا يزالون أقوى ألف مرة من خصومهم ، وأقدر فيما اندرجوا فيــه من حرارة دماء الشباب على سحق عدوّهم الذى خيل اليــه وقتًا ما أنه قد فاز بالنصر عليهم . وفريق وجد السلامة فى النزول عن مَثَله ، والانضواء تحت لواء من ظهرت فى صفوفهم الغلبة أوّل الأمر . ظن الهلاك وأن لا منجى ، فنزل عن مَثَله ، فهلك من حيث ظن النجاة ، وقضى فى حيث يخال السلامة .

لقد كنا بالأمس نسرى فى ظلمة خانقة ، وتحت سماء تنهار فوق رءوسنا ، ولكن هاهى السماء تمسك عن الانهيار ، وها هى أشعة الفجر الأولى تلوح ساحرة رطيبة فى أفق بعيد ، ولكنه على المؤمنين قريب .

السبت أوّل سبتمبر سنة ١٩٤٥ — نجيب محمد البهبيتى

obeikandi.com